**المحاضرة الحادية عشرة:**

**التجديد الشعري في المغرب العربي (1)**

**توطئة:** استطاعت القصيدة الرومانسية أن تتعدى بتأثيراتها الفنية حدودها التي ظهرت فيها فكان أن امتد هذا الأثر إلى الشعر في المغرب العربي بوصفه مظهرا من مظاهر التجديد شكلا ومضمونا نتيجة الأوضاع السياسية والأزمات الاجتماعية المشتركة في العالم العربي، إضافة إلى الحس الغنائي للذات العربية فكانت بذلك ثورة على القصيدة المحافظة إذ خرجت أحيانا عن الأشكال التقليدية المتوارثة بعودتها إلى الذات واتباعها خطى الحياة في شروقها وغروبها فكانت نابضة بالحياة والرؤى و بالعواطف التي تلفها تساؤلات إنسانية.

ومن الشعراء الذين عرفوا بمحاولة تموقعهم بين المشرق والمغرب نذكر الشاعر أبو القاسم الشابي؛ إذ كان عضوا في جماعة (أبولو) وفي الوقت نفسه لم تنسه العضوية واجب الانتماء إلى الوطن الأم (تونس) وما يقتضيه ذلك من رغبة في تحريره من قيود الاستعمار يقول الشابي(1909-1934) في قصيدته(يا ابن أمي)[[1]](#footnote-2):

 خلقت طليـــــــقا كطيف النسيـــــــم وحرا كنور الضحى في سماه

 تغرد كالطيـــــــر أنـــــــى اندفعـــــت وتشدو بما شـــــاء وحي الإلـــــــه

 وتمـــــرح بيـــــــــــــن ورود الصبـــاح وتنـــــعم بالنـــــــور أنـــــــّـى تــــــــــــــراه

 وتمشي كما شئت بين المروج وتقطف ورد الربــــــــــــــا في رباه

 كذا صاغك الله يا ابن الوجود وألقك في الكون هذي الحياة

 فما لك ترضى بــــــــــذل القيــــــــود وتحني لمن كبــــــــــلوك الجبــــاه؟

هذا المضمون الشعري بأبعاده الثورية قائم على الدعوة إلى الانعتاق بأسلوب استفهامي تقريعي تكرر في مواضع متعددة، وفيه أيضا حثّ على الانطلاق نحو عوالم الحرية الفسيحة وما فيها من مظاهر الإحساس بمظاهر الطبيعة مجسدةً في قاموسها الموظف (النسيم، الضحى، الطير، الصباح، المروج، ورد الربا).

لقد واكب الشعر في المغرب العربي واقعا استعماريا متأزما استدعى ردة فعل من قبل الشعراء الذين يمثلون جزءا لا يتجزأ من المجتمع بوصفهم أصحاب رسالة ثورية، فكان ذاك سببا في ظهور الشعر الوطني الداعي إلى التعلق بالوطن واسترجاع الحقوق المهضومة يقول الشابي في قصيدته (إرادة الحياة)[[2]](#footnote-3):

 إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

 ولا بد لليـــــــــــــل أن ينــــــــــجلي ولا بد للقيـــــــد أن ينـــــــكسر

 ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جـــــوها وانـــــــدثر

 فويل لمن لم تشقــــــــه الحياة من صفعة العدم المنكسر

 كذلك قالت لي الكائــــــــــــنات وحدثني روحها المستتــــــــر

فالشاعر إحساسا منه بانتمائه الوطني وحرصا منه على النضال بالكلمة نلفيه مؤمنا بقضيته داعيا إلى تحرره بأسلوب سلس بألفاظه وعباراته التي تحفز الهمم من أجل كسر قيود المستعمر، والتطلع إلى غدٍ أفضل يسود فيه الشعب وينعتق من ذلّ الظلمة والطغاة.

ويقول في القصيدة نفسها:

 ودَمْدَمَتِ الرِّيحُ بَيْنَ الفِجاج وفوقَ الجبالِ وتحتَ الشَّجر

 إِذا مَا طَمحْتُ إلى غاية رَكِبتُ المنى ونَسيتُ الحَذرْ

 ولم أتجنَّبْ وُعورَ الشِّعابِ ولا كُبَّةَ اللَّهَبِ المُستَعِــــــــــــرْ

 ومن لا يحبُّ صُعودَ الجبالِ يَعِشْ أبَدَ الدَّهرِ بَيْنَ الحُفَرْ

 فَعَجَّتْ بقلبي دماءُ الشَّبابِ وضجَّت بصدري رياحٌ أُخَرْ

 وأطرقتُ أُصغي لقصفِ الرُّعودِ وعزفِ الرّياحِ وَوَقْعِ المَطَرْ

 وقالتْ ليَ الأَرضُ لما سألتُ أيا أمُّ هل تكرهينَ البَشَـــــــــــــــــرْ

 أباركُ في النَّاسِ أهلَ الطُّموحِ ومَن يَسْتَلِذُّ ركــــــــــــــــوبَ الخطرْ

 وأَلعنُ مَنْ لا يماشي الزَّمانَ ويقنعُ بالعيـــــــشِ عيشِ الحجرْ

ولمّا كان الشعر عند الشابي موصول بأبعاده الذاتية فإنه كثيرا ما يصوغه ممزوجا بعناصر الطبيعة ومظاهرها ومنها قوله في قصيدته(في سكون الليل)[[3]](#footnote-4):

 أيّها الليل الكئيــــــب أيها الليـــل الغريـبْ

 من وراء الهـــــــــــــــول من نقاب الظلماتْ

 في خلايــاك تراءت لي أحزان الحيــــــاة

 ما أنا أرنـــــــــو فألفي ك كـــجبـار حطيــــــمْ

 ساكنا جلّلك الحزن وأضنـــــاك الوجـــــومْ

حيث تبدو ملامح التجديد في إسقاطه لنفسيته على مظهر من مظاهر الطبيعة (الليل)، بما فيه من ظلمة وسكون يقابله الحزن والوجوم، هذا من حيث المضمون أما من حيث الشكل فنلحظ توظيفا لأكثر من روي دون أن يمنع ذلك الشاعر من الحفاظ على وحدة البحر(الوافر) واستعمال المجزوء منه لسهولة نظمه على الشاعر ويسر حفظه على القارئ وقد يـُــــــفضل أحيانا الأبحر ذات التفعيلة الواحدة لانسيابية حركاتها وسلاسة إيقاعها.

وتبدو العناصر ذاتها متمظهرة في المقطع الآتي:

### هو الكونُ حيٌّ يحبُّ الحَيَـــاةَ ويحتقرُ الميْتَ مهما كَبُرْ

### فلا الأُفقُ يَحْضُنُ ميتَ الطُّيورِ ولا النَّحْلُ يلثِمُ ميْتَ الزَّهَرْ

### ولولا أُمومَةُ قلبي الرَّؤومُ لمَــا ضمَّتِ الميْتَ تِلْكَ الحُفَرْ

### فويلٌ لمنْ لم تَشُقْهُ الحَيَــــــــــاةُ منْ لعنةِ العَدَمِ المنتصرْ

### وفي ليلةٍ مِنْ ليالي الخريفِ متقَّلةٍ بالأَسى والضَّــــجَرْ

### سَكرتُ بها مِنْ ضياءِ النُّجومِ وغنَّيْتُ للحُزْنِ حتَّى سَكِرْ

### سألتُ الدُّجى هل تُعيدُ الحَيَاةُ لما أذبلته ربيعَ العُمُـــــــرْ

### فلم تَتَكَلَّمْ شِفاهُ الظَّلامِ ولـــــــــمْ تتـــــــــرنَّمْ عَذارَى السَّحَـــــرْ

### وقال ليَ الغابُ في رقَّـــــــــــــــــــةٍ محبَّبَةٍ مثــــلَ خفْقِ الوترْ

وقد تطور مضمون الشعر عند الشعراء المغاربة بما يتناسب وواقع مجتمعاتهم فاهتموا بالشعر السياسي التحرري لتمجيد أبطال الثورة أو الشهداء ومنه قول مفدي زكريا في قصيدته (الذبيح الصاعد)[[4]](#footnote-5):

 قـــام يختــــــــــال كالمسيح وئيـــــــــــدا يتهادى نشـــــوان يتـــــلو النشيدا

 باسم الثغر كالملائكة أو كالط ــــــفل، يستقبل الصباح الجديدا

 شامــــخا أنفـــــه، جـــــلالا وتيـــــــها رافـــــــعا رأسه، ينــــاجي الخلــودا

وإن من قصائده ما يتضمن أبعادا ثورية أكثر جرأة في مخاطبة المستعمر على ظلمه وجوره، يقول مفدي[[5]](#footnote-6):

 أمن العدل صاحب الدار يشقى ودخيـل بها يعيــــــش سعيـــــــدا؟

 أمن العدل صاحب الدار يعرى وغريب يحتـــل قصــرا مشيدا؟

 ويجـــــــوع ابنــها، فيعــــــدم قــــــــــــــوتا وينال الدخيــــل عيــشا رغيـــدا؟

 ويبيــــــــح المستـــــعمرون حمـــــــــاها ويظـل ابنـــــها طريدا شـــــــــريدا

وهذا ما يدل على ارتباط الشعر بقضايا الوطن في أحلك ظروفه التي عانى من ويلاتها خلال الفترة الاستعمارية، فانبرى أثناءها الشعراء للتعبير عن وطنيتهم ومدى تعلقهم بأرض الأحرار، متخذين من لغة الشعر وسيلة من وسائل النضال بالكلمة من أجل التحرر والانعتاق من نير المستعمر.

وعلى الرغم من هذا التلازم بين الشعر ودوره الرسالي خدمة لقضايا الوطن بما له من قدسية خاصة بما هو مظهر تجديدي في مضامين القصيدة على الأقل في ارتباطها بمشكلات الواقع وتقلباته إلا أن النص الشعري عند مفدي لم يخل من محاكاة القدامى في أغراضهم ومنها غرض الغزل، مثل قوله في قصيدته (بنت الجزائر)[[6]](#footnote-7):

 ردي علــــــيّ أهـــــــازيجـــــي موقــــــــــعة فقـــــــد أعــــــــــــــــارك وزنا قلبي الخفقُ

 واستأذني في رسالات الهوى قمرا يرنــــو إليه كـــــلانا، حين يتســـــــــق

 فكم قطعت عهودا ، أصبحت حلما حتى غدونا ، بغير الحرب لا نثق

 حقوقنا ،بدم الأحــــــــــــــرار نكتبـــــــــــــــها لا الحبر، أصبح يعنينا ، ولا الورق

 لا تطمعي النصر ، من جند سماسرة أيحرز النصر مأجور ومرتـــــزق ؟

 جند، يباع ويشرى مثل ماشيــــــــــــــــــــــــة يلقي السلاح إذا ما نابه الفرق

فالشاعر على الرغم من طابع القصيدة المحافظ من حيث بناؤه الفني إلا أنه لا يخلو من رمزية لارتباطه بسياقات معينة تاريخية وواقعية، يقول مفدي:

 جيش من المرد ، غلمان ، مخنثة أحلاس يدفعها - للزلة - الشبق

 فلا ضمير عن الفحشاء يردعهم إن أيسروا فسقوا ، أو أعسروا سرقوا

 يارب .. عجل بنصر كم وعدت به فإن بابـــــــــــــــــــك ، باب ليس ينغلق

 وأنت يا سجن .. لو أفلت ناصيتي رأيتني ، لخطوط النار أختــــــــــــــرق

وفق قراءة متفحصة لفحوى هذه الأبيات يمكن استنطاقها واستنباط ما فيها من معان متعددة منها:

-النزعة الثورية التي يتميز به المضمون النصي.

-اللغة التقريرية مع محاولة توظيف بعض الرموز التراثية أو الدينية أو الوطنية في متن القصائد.

-النبرة الخطابية.

1. - أبو القاسم الشابي: ديوانه، ط04، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، ص159 [↑](#footnote-ref-2)
2. - أبو القاسم الشابي، المصدر السابق نفسه، ص70. [↑](#footnote-ref-3)
3. - أبو القاسم الشابي: المصدر نفسه، ص 25. [↑](#footnote-ref-4)
4. - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، د/ ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية الجزائر، 2007، ص17. [↑](#footnote-ref-5)
5. - مفدي زكرياء: المصدر نفسه، ص22. [↑](#footnote-ref-6)
6. - اللهب المقدس، ص27. [↑](#footnote-ref-7)